العقل والقلب

« لكي عم مصر لدني لم يجعل على عاتق الصلاح » موتتان

« ترى ماذا يجب في الحقيقة والجمال والفضيلة؟ ان نحب فيها جميعاً اللانهاية . لان حب اللانهاية يختفي تحت حب الصور » فيكتور كوزن

ما فتىء الانسانُ يضربُ من افق الى افق ساعياً في ابتغاء المعرفة. ويتعرّفُ بذكائه واقتداره محوّلاً وجه الطبيعة العبوس الى صفحة خصيبة تتناسق نظاماً وتتبيحُ جمالاً . شبرَ اليابسة فجندل غابَاتها الشجراء مشيداً في موضعها المدائن والممالك ودرّعَ البحار فلجم امواجها الهوجاء قاطعاً بانفاس البخار شاسعَ المسافات. استعبد العناصر لقضاء حاجته وعقد بين المشرق والمغرب بالبروق الخلَب وما كمن فيها من خيوط النور وسبائب الكهرباء . تسرّب من بين الاضلال والاحجار في القرون الخاليات فناجى ما تركَ اهلها من الآثار ونفذ من الخواس الظاهرة الى خفايا النفس فانجلى لهُ ما فيها من مبهم المجهول ودفين الاسرار . ذلّل كلَّ عقبة في هذا العالم مبدعاً لكل رغبة من رغباته فنّاً مستخرجاً لكل فكر من افكاره علماً. فما اصدق القائل ان هذا الكائن الضعيف انما هو الله قديراً!

وما يقال في الانسان من حيث هو النوع الانساني يجوز اطلاقهُ عليهِ بصفته فردٌ واحد . لانهُ سواء كان فرداً او مجموعاً فان حياتهُ كلها شوق وجهاد وهو فيها خالقٌ مدبرٌ مصلحٌ مقوّمٌ ابداً . والطبيعة لا تعهد الى كائنٍ اتمام عمل الا اذا جعلتهُ خليقاً بهِ . ولا تقيم الظروف رجلاً لحراسة حجةٍ الا اذا حاز من التدبير ما يمكنهُ من مواجهتها بالنباية المنشودة . فهي كانت حياة المرء ضيقة الدائرة متقلصة الاطراف فهي عامرة في ذاتها تملأها العجائب والممكنات. فكيف بها اذا كانت واسعة المحيط تتناول ابعادها مختلف المصالح وجمّ الشؤون ؟ هنالك يختلط الحابل من الامور بالنابل وينافض النسير ما هان بحكم العادة والمألوف . فكم من عقبة تعذر حلها ساعة النظر فيها حتى اذا تمّ ذلك بدت مشاكلها كالاعيب صبيانية او كانت تعدّدت العقبات وتكاثرت الصعاب في طريق المرء الذي ذكاؤه وتضاءلت همتهُ باختباره مواضع الاساءة والاحسان. فكان في جميع الفروع الواقعة تحت ادارته

خالقاً دائم الابداع والابتكار . في كل لحظة من حياته يستعمل قواه قبلها او كثيرها عملاً بمطالب الاحوال . لكن ترى ما هي القوة الاصلية الدافعة به الى جميع ما يأتيه وما هو القوالب المحرك جميع قواه في مكامنها تنطلق في سبل الحياة صاخبة جادة ؟

يمتدح الناس شخصاً فيقولون يومئذ انهُ رجلٌ « عاقل » ويثنون على غيره في يوم آخر فيمتدحونهُ « بالكريم ذي القلب الكبير » وذاك المدح وهذا الثناء لا يعنيان شيئاً واحداً . هم يريدون بالرجل « العاقل » ذاك الذي يحسن مقاومة شعوره متغلباً على اضطراباته النفسية بسلطة « العقل » فيعطون اذ ذاك للعقل المقام الاول . ويقصدون بالرجل « الكريم » الرجل الحساس العامل تحت تأثير العواطف والاريحي الذي تهزهُ النخوة فيكرّس لمشروع مفيد او عمل عظيم اثمن قواهُ واغلى ممتلكاته . فيجعلون بذلك « القلب » في المركز الاسمى . وقد لا يقتصر اعجاب الناس على المشروعات النافعة والاعمال العظيمة بل قد يغتفرون احياناً اغلاطاً باهظة وتتأثر كثيراً اذا كان الدافع انها شعورٌ صادقٌ واخلاصٌ اكيد . فكأنهم يقولون مع القديس اغسطينوس « يا للاثم السعيد(١) ! »

يحدّدون العقل(٢) بكونهِ القوة المدركة التي يجب ان يرجع اليها الانسان في جميع اعماله طالباً منها تقدير الحقوق والحكم بالعدل . وقال بكال الفيلسوف الرياضي الفرنساوي ان العقل عقلان : عقل يدرك بسرعة ودقة ما يتوقف على المبادىء من النتائج وهو عقل العدل او العقل الاخلاقي . وعقل يدرك بجلاء مبادىء جمة دون الخلط بينها وهو العقل الرياضي . لاوّلها الاقتدار والاستقامة والرشد وللآخر الدقة والاتساع . وقد ينال المرء احد العقلين دون الآخر فيكون عقلهُ قوياً وضيقاً او واسعاً وضعيفاً في آنٍ واحد

(١) O Felix Culpa كلة قالها القديس اغسطينوس في خطبة له شهيرة عند ذكر خطيئة آدم وسوء اثرها سببت مجيء المسيح لخلاص البشر على نحو ما يعتقد المسيحيون

(٢) ورد في تعريفات الجرجاني : « العقل ما يعقل به حقائق الاشياء محله الرأس وقيل محله القلب » « القلب لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني الصنوبري الشكل الموضوع في الجانب الايسر من الصدر تعلق . وتلك لطيفة هي حقيقة الانسان ويسميها الحكيم النفس الناطقة . والروح بضمه » ولا يخفى ان الجرجاني كان متصوفاً والقلب عند الصوفيين بحر اللاهوت الحاوية للذات جوهرة

اما القلب الذي يستمد غنى عاطفة او شعور غير قوة التأثر بالسرور والالم ومقرّ حركات النفس من تأثير واضطراب وانفعال

كذلك فرّق العلماء بين العقل والقلب قائلين ان هذا مندفع مثوّر وان ذاك يردعهُ ويدعوهُ الى التبصر . واقاموا هوّةً بين الفكر والشعور كأنهما عالمان مستقلّ كلٌّ منهما عن الآخر حبس الذكاء والادراك في احدهما وكان الحب والحنانُ نصيب الآخر . او كأن في كلّ امرىء شخصيتين اثنتين تختلف منهما المصالح والمنافع احداهما ترقة طائشة تندفع بقوة نحو مطلوبها بلا تروّ او تردد والاخرى رصينة رشيدة ينفذ نظرها الى خفايا العواقب فتحكم وضع الاشياء في محلها

فعل العلماء ذلك لان لهم احكاماً غير احكامنا نحن صغار الخلائق الذين اذا ما نظرنا الى حياتنا رأينا ان عالمي افكارنا وعواطفنا ودائرتي قوانا الفكرية والحبية تتلامسان وتتحدان حتى يتعذّر العثور على الحدّ الفاصل بينهما . بل نرى كلاً منهما مرغمة على توسيع الدائرة الاخرى والامتزاج بها امتزاجاً لا يقبل التفريق . ترى هل يمكن ان يشعر الانسان دون ان يفكر او ان يفكر دون أن يشعر ؟ ألا تنبعثُ حركةُ كلّ عاطفة وكل تأثير في قوانا الفكرية منبهةً فيها حياةً جديدة ؟ وهل يتمكنُ الفكرُ من انتاج ثماره اليانعة الا باشتراك العاطفة والاستعانة بما لديها من خبرة وذكرى

اما العائش بالعقل دون الشعور كأن أبقراط تصاءلت منهُ افضل القوى المعنوية فصار يقطع صحراء الحياة كشاهد غريب « يتفرج » ولكنهُ لا « يعيش » ولا يشعر بان الحياة تحبهُ . لأن الشعور وحده ينبهُ اعماقنا كما ينبه الى ادراك جمال الاشياء ويجعل ما نحبهُ لنا وخاصتنا على نوع ما . كلّ شيء فيه شبهة من جمال طبيعي او اخلاقيّ ملكنا . نعم ملكنا السماء بما يدور فيها من كواكب وشموس ويجتازها من سحاب والوان ونور وظلام . ملكنا الطبيعة وما يزينها من جبال ووهاد واشجار وانهار . وملكنا الصفاتُ السامية والسجايا الباهراتُ التي تطمح نفوسنا اليها . كل ذلك ملكنا بالرابطة السحرية العجيبة التي يشتركُ في ضفرها أشرف ما في قلوبنا من حبّ واعجاب

يقول الكانيون من المفكرين ان العقل الامثل شبيهٌ بالحب اذ تتلاقى فيه

جميع الكائنات وتتحد حتى تصير وحدة الكل . وقد يكون ذلك ما سماه ارسطو « العقل الاول » ودعاه كنت « العقل المحض » . والذين ينبعون هذه الاصطلاحات الفلسفية قليلون وتعتقد الاكثرية ان واضعيها لم يفهموا انفسهم بالضبط . لكن العاطفة لغة مشتركة بين الجميع ومهما اختلفت من الانسان لنفسه وآرائه ونظرياته وجنسيته فانه يظل هو هو الكائن الباكي او الضاحك الذي ينقلب قيثارة طرب وشجن كما تقرت على اوتار قلبه يد السرور او يد الالم

حياة الانسان كحياة جميع الكائنات كلها حركة . من الولادة الى الموت في اليقظة كما في المنام تتابع اعضاؤنا حركاتها بلا ابطاء او ملل . وما القلب الذي تنسب اليه كل سعاداتنا وشقائنا ويشفق عليه المغني فيكثر من انشاد « سلامتك يا قلبي » ما هذا القلب الا عبد حكم عليه أن ينبض ليل نهار لبضاعة المتشابهات وما وظيفته الا استطراد الانقباض والانبساط ليبعث في سائر أعضاء الجسم بدم تتي يمكن كلاً منها من تأدية وظيفته بسهولة واتقان . لا يعني ذلك انه مضخة جاذبة دافعة ليس غير . انما هو عضو دقيق تصله بالجهاز العصبي اعصاب نحيفة ولئن كان ممثلاً دوراً ثانوياً في حياة العواطف فان ذلك الدور عظيم في غاية الاهمية . يضرب القلب مستقيماً وينبض منتظماً حتى تهتز منا النفس لامر ما فتسارع حركته او تتباطأ على وفق العواطف التي تدفعنا . وهو بذلك اكثر قسطه من جميع الافراح والاتراح

انما تتولد العواطف في الدماغ وليس في القلب . وحياة هذا الدماغ المكين ليست بطيئة لانه يظل غالباً فواراً يقدح زناد المعاني وتستعر في اعماقه نار الافكار . يستقبل من الحواس تأثيرات يدوّنها باعثاً بها الى مقر حسها . وهو مع ذلك عامل مخلص امين يعمل لغير اجرة ويؤدي وظيفته الصعبة بمهارة واتقان لا ينتظر عليهما امتداحاً وثناء . وقد اشتهرت حملة العالم الطريف — وليس اكثر ظرفاً من العلماء اذا ارادوا — القائل : « لا تذهلني كثرة المجانين بين البشر ولكن عندما ارى حيّ الدماغ الدائبة واحتمال جريان الافكار المتواصل وما يرافقه من تأثيرات وانفعالات اتعجب كيف لا يعمّ الخبل العقلي فيصير جميع الناس مجانين »

قال اوسفلد : « لا يوجد شيء في الذهن الاَّ ويكون قد سبق وجوده في الحواس » . معناه ان كل فكر من افكارنا تكوَّنهُ تأثيرات آتيات قوَّة من الخارج او منبعثات في خاطره من بقايا تذكارات ماضيات انتقلن الينا بواسطة احدى الحواس الخمس

كل عاطفة او فكر صورة ذهنية في بادئ الامر . فنلتفتُ الى الصورة عند مرورها في الذهن وقد نهتم بها كثيراً لكن ذلك الاهتمام يظل هادئاً كما هي الحال عند قراءة مقالة رياضية او علمية مجردة . وهذه هي الحياةُ العقليةُ الصرفة التي يشتهيها من العلماء والفلاسفة العاكفون على ابحاث مجردة في موضوعات لا علاقة لها باشخاصهم ومنافعهم . ولكن اذ عادت تلك الصورةُ ملائمةً لخفايا ميولنا متجهة فينا املاً او اسفاً او تذكاراً اقترن بها في الحال تأثير سرور او الم فتتحول صورة الذهنية الهادئة الى عاطفة حارَّة وهائجة . وقد تكون العواطف تافهةً حقيرة لان ما تنبهنا اليهِ كذلك مثل الاهتمام بطعم غذاء مرّ او حلو شهيّ او رديء . وقد تكون شريرة كالتطلع والحقد والبغض وما شاكلها . وقد تكون شريفة لان موضوعها ادبي او فني او اخلاقي . كذلك تهزنا الحمية ازاء عمل شنيع فنتحمس للآخرين مجازفين بالاموال والارواح دفعاً للظلم وتأييداً لحقٍّ عزيز . وهذا ما يسمونهُ « الغضب المقدس »

على ان الانانية مصدر هذا التحمس الجميل . ان الاهتمام الحرسيتية تنحصر في [illegible] واسطة اصلاً لانها تتركب من عاطفتين اصليتين وهما الرغبة والخوف . ويجوز تحويل التقسيم الى ابسطهِ فنقول ان لعواطفنا محركاً واحداً هو الرغبة : فاما رغبة ايجابية تحث المرء على طلب شيء محبوب فيرغب فيه واما رغبة سلبية تجذبهُ الى الوراء احتراساً لوقوع ما يخشاهُ فيرغب عنهُ

قال : اما المتصرفون بمقتضى العقل فلأنهم يشعرون نفسهم في مكانة فيشعرون باحتياجهِ الى محبر قوي . يقومون الضرب على يد الخائن كلا يتفاقم شرهُ فيتطاول الى الاقوياء بعد اهتضاد الضعفاء . لكنَّ هذا النوع من الانانية ممدوح مشكور — ان لم يصطبغ بالتعصب — لانهُ يكون في الغالب انانية اقوام ترغم فيها الافراد على بذل النفس فتصير الثروة مقتسمة . واذا عظمت من المرء شخصيتهُ وارتقت ميولهُ

لم يتنصر حباً على وطنه وقومه بل صارت الانسانية عائلته . ولله در الحكيم ديوجنس الذي سألهُ الاسكندر يوماً عن وطنه فاجاب : « انا من وطني العالم واسمع عشيرتي الانسانية » ودر فيلسوف الشعر القائل

فلا هطلت عليَّ ولا بارضي سحائب ليس تنتظم البلادا

***

العواطف ملاصقة للطبيعة البشرية وهي الشخصية المميزة للفرد اذ لا يتشابه اثنان من حيث الشعور . فبالسحر العاطفة اذا تموجت في اثير النفس وبالاقتدار على تكوين الشخصية وتكييف الاخلاق ؛ وما الافعال الاَّ من نوع العواطف فعلى من يريد جعل الاعمال مفيدة رافية ان يسلح العواطف حتى تصير جليلة سامية . وما اعظم خطأ الذين يستعملون الارهاب في التربية ! يظنون انهم يلاشون العواطف الرديئة ويستأصلون الميول الفاسدة وهم اختبروا النفس البشرية لعلموا انهم جاهلون . او هل يتلاشى السيل الجارف الهابط من اعالي الجبال اذا اختفى حيناً او يُستأصل النهر المندفع بقوة نحو البحر تحت الظلال وبين الادغال ؟ كلّ عاطفة قوة هائلة وكل ميل اقتدار رهيب وانما عمل التربية وغايتها هما تحويل تلك العواطف والميول من وجهة الشر الى وجهة الخير . واذا اعتاد المرء حب الاشياء الخيرة المفيدة فعيشاً تنهاد عن الاشياء الفاسدة المضرة لانهُ من تلقاء يعرض عنها مشمئزاً

العقوبة سلاح الاستبداد الهابط بالانسان الى درجة الانعام التي لا يخشاها الاَّ النعساس وما الارهاب فعاملٌ الاَّ ما دام ممكناً حتى اذا ذهب ذهب معهُ الرادع عن الاثم وعكف الانسان على السوء يغتذي منهُ هنيئاً مريئاً . لان الارهاب لا يزيل رغبة الشر بل يوغمهُ على الكمون حيناً وفي ذلك قوتهُ . فاذا ما سنحت لهُ الفرص بالظهور كان على المجتمع ويلاً

في شعورنا حياتنا الاخلاقية وكما ان منهُ السعادة كذلك منهُ الشقاء . ومعظم ما نسميهِ الشقاء — ان لم يكن كلهُ — متأتٍّ من عواطف حائرة متقلقلة لم ينتظم تجاهها ولم يتوازن منها التكافؤ فيقابل شعور بعضها وصيانة البعض الآخر تحت نظر العقل الهادىء الحكيم

***

اقول « نظر العقل الهادىء الحكيم » ولا اعني ان كل من كان « عاقلاً »

كان حكيماً . اذ يندر اتفاق العقل والحكمة . ومن الاشياء ما هو في منتهى الحكمة ولكنه ليس « معقولاً » في نظر العقل

من لا يستحسن الشجاعة مثلاً والاشفاق والكرم والنخوة ؟ من لا يعظم الابطال ويجراً على القول انهم اقل حكمة من الذين لا يحركون ساكناً اذعاناً لاوامر العقل ؟ جميع الاعمال العظيمة مبنية لسلطان العقل لان العقل بارد لا يتأثر لكن الحكمة تعرف التأثير والاضطراب فتتغلب عليهما . لا حب في العقل وفي الحكمة حب كثير يتدفق على جميع الكائنات . العقل آلة واضحة منظمة ترى الاشياء كما هي وتتكلم على لغة واحدة مقررة هل الشيء « معقول » او « غير معقول » . ولا تهتم بما سوى ذلك

لست اقصد بهذا وجوب عدم الاهتمام بالعقل واهمال تثقيفه . ان حياة لا يكون لها من العقل ركن متين لا يمكن ان تكون حياة عظيمة اذ لا شيء يتكفل بتقوية المقاصد الكبيرة ويضمن تدريبها بين انصاب القائمة امامها مثل العقل السليم . هو واهب الصبر والحاكم بالعدل والانصاف . ولكني ارى الجميع يهتمون بتثقيف العقول دون تكييف الشعور . جميع المدارس « تعلم » ولكنها لا « تهذب » . تحشو الدماغ دروساً ولا تملأ العواطف جمالاً . وليس من مصلحة الامم ان يلتهم الدماغ منها العواطف لان اليد التي حطمت الدوها طريق المجد والنصر وقبضت على صولجان الملك كانت دائماً يداً قوية كبيرة يد الانفعال والعاطفة . ولم تفصل القوة والسؤدد الا في اليد الضعيفة النحيلة يد العقل والمنطق . ولئن كان كثير من الانفعالات النفسية سبب البلايا والشرور فان الكثير الآخر خير وكل الخير فيه

لقد أرتنا هذه الحرب الطاحنة من مخترعات العقل والعلم عجائب غرائب وأرتنا كذلك ان العقل وبال على بني الانسان اذا جعلته مطامعهم — عواطفهم غير المهذبة — ملاحاً يدافعون به عن مصالحهم . لان مخترعات العقل تعرض في الاسواق اما قوى النفس وما فيها من عظمة وصلاح فلا تباع ولا تشترى . ولن يظهر جمال العقل وقداسته الا يوم تتجه الانفعالات بالتربية نحو الغاية الحميدة فتسير راقية سامية وراء مصباح العقل المنير

ان يوماً يبرز فيه العقل وقد ثقفه العلم والمعرفة بقرب عواطف هذبتها يد الالم والرحمة ليوم تتدفق فيه البركات على العالم سيولاً

(يتبع)